نشاطه . وكيف اكون — سؤالا يتضمن اجابة فورية في بنية السؤال ذاته ، لانه يعني ادراك الحاجة الى التغيير ، والى الحداثة . التغيير هو الممارسة الذهنية والعملية التي يعيشها العربي اختبارا وتجربة واجتهادا . في الادب ، والادب الثوري اعني ، تحدث للواقع فضيحة ، يكتشف بأنه نقيضه وهو متألفان . لقد حدث شيء ما بدل الواقع في الاحتمال . تلك هي ميزة الادب او دوره او مكانته في عملية التغيير .

في البداية ، لا اكتب شعرا لاغير الواقع . ولكن الواقع ارغمني على الكتابة . استعبدني من شدة ما اذلني ، من كثرة ما كان واقعا وقعت فيه . ولكن هذه العبودية منحتني الحرية ، فحين كتبت وجدته يختلف عن نقيضه ، ولكن نقيضه ليس الا هو متحولا . اي : انه هو يمكن أن يكون هو بشكل أفضل ، حين اتدخل انا فيه . حين احضر انا بين هو وهو . وهذه هي وقفتي الحرة . هذه هي علاقتي بمعادلة الواقع التي استخرج منها حريتي من جهة ، وقابلية الواقع للتحرر والتغيير من جهة اخرى .

متى حدث ذلك ، وكيف ؟ حين لم اكن شاهدا على الواقع ولا شهيده . فهل انا بينهما؟ كلا . لان هذه الحالة شكل مخادع من أشكال المراقبة .

واجب الاديب هو وهمه . خاصة عندما يكون وهمه هو واجبه ، ولكن لهذا التناقض مغزى ودلالة خاصة حين يكون الاديب نتاج شعوب في مثل مستوى تطور او تخلف شعوبنا .

ليست له مثل قضيتنا ذلك الشاعر الذي قال : اريد أن أغير العالم . كان سلاحه الى ذلك الذهنية او متعة التفرد في الهرب من دخان المصانع الى الازهار البرية بعدما القت الكلاسيكية بعتادها ، وهرب الواقع من معلباتها . كان طموح الشاعر «شاعريا» خالصا اذا جاء التعبير ، ولكن الشاعر الثوري الجديد في آسيا وافريقيا ليس «شاعريا» بالمفهوم الرومانسي للكلمة .

ولكن ، ما اشد واقعية الشاعر الاسيوي — الافريقي ، في هذه المرحلة من مستوى تطور القارتين ، في تفاوته ، حين يندمج في هذا الوهم . ان هذا الوهم واجبه والتزامه الذي لا ينتقيه كما تنتقي اللوحة او الاسطوانة . وهذا ما يفعله به الواقع .

ليس بوسع الادب أن يغير الواقع الا فرديا . اي ليس بوسعه ان يغيره للجميع . ولكن هذه الفتحة من التحول او الخرق الذي يقود الى التحول تصبح ممرا جماعيا حين يندمج الشاعر — أو لنقل حلمه — في حركة القوى القادرة على التغيير ، او حين يدمجها في عناصر الثورة . تحتاج المسألة الى فاعلية كل الاطراف . ولكن الاديب لا ينتظر هذه الفاعلية ، والا اندمج في الجمود .

هكذا ، اذن ، نعدد المراحل : ليس بوسع الادب أن يغير العالم . ولكن يجب أن نضيف كلمة « وحده » ، انه يغير « مع » سواه ، حين يجسد وهمه حلما شعبيا . انه في مرحلة الفاعلية السلبية يبشر بالتغيير . وفي مرحلة الفاعلية الايجابية يندمج نتاجه في قوى التغيير .

والادب العربي الحديث يمارس هذا الحلم — اذا جاز التعبير — ويسميه الثورة . وبين الحلم واسم الحلم تعلو انفاق كثيرة ، وحروب كثيرة ، وخيبات أمل كثيرة ، ويكون الموت الذي لا يميت . الموت — الاسطورة ، الموت الدال . هذا الموت الخاص يكاد ان ينحول — بعد المكان — الى البطل الابرز في الادب العربي . او بوسعي ان ادعي بأنه النموذج الحي في أدبنا . هل هي مفارقة أن يكون الموت بطل الحياة او نموذجها في الحاضر العربي ؟ كلا ! لانه يحمل جوهر التحول ، المتمثل في الفداء ورفض الواقع المفروض والمخاطرة من أجل تجسيد الحلم . ان الشهيد وتمجيده في حياتنا الحاضرة ليس